مقال أوحاه قصف المدافع فى ليلة حمراء

دنيـــا الشقى السعيد

فى ١٧٢٨٠٠ ثانية

للدكتور زكى مبـــارك

فى الساعة العاشرة من مساء الجمعة وهو اليوم الثانى من شهر مايو ، شهر الأزهار ، كما يسميه أحد شعراء الفرنسيس ، مضيت إلى دار المفوضية العراقيــة مع مترجم « آلام فرتر » لنشهد آلام الأصدقاء الأعزاء وقد آذتهم أخبار الحرب فى يوم الاحتفال بعيلاد « الملك الشبل » وهو ابن غازى وحفيد فيصل

وفى الساعة العاشرة من مساء الأحد ، وهو اليوم الرابع من شهر مايو ، حملت القلم لأحدث قراء « الرسالة » عن تفاصيل ما ثار بينى وبينهم من خصومات ، ولـكن المدافع ثارت فوق رأسى حتى كدت أتوهم أننى المقصود بعدوانها الأثيم ، فالبيت الذى أقيم فيه يرتج ارتجاجاً عنيفاً جداً ؛ وأنا أكتب هذه السطور بدون أن أعرف كيف تنتهى هـذه الليلة السوداء ، وإن كانت قمراء . وصاحب البيت يطرق باب غرفتى بعنف ليحضنى على النزول إلى السرداب ، فأجيب : دعنى ، دعنى ، فأنا أشتهى أن أموت والقلم فى يدى ! !

ومعنى ذلك أننى فى الأسكندرية وفى أخطر مكان وهو « الرمل »

الغرفة محجوبة النوافذ بحجاب سميك ، وفيها نور ينتعش ولا يراه أحدٌ غيرى ، وأنا مع ذلك أكاد أشهد نيران المدافع وهى تخترق أحجبة النوافذ ، فهل حان الوقت لأستريح من دنياى ، ولأنجو من بنى الأعداء ، وغدر الأصدقاء ؟

طاخ ! طاخ ! طاخ !

تلك أصوات المدافع ، وكأنها تقصدنى بالذات ، فهى تُزلزل الدنيا من حولى ، وتنذرنى بنهاية كريهة دميمة هى الموت فى مكان لا أودّع فيه أهلى وأبنائى

طاخ ! طاخ ! طاخ !

اصنعوا ما شئتم ، أيها العادون من بنى الألمان ، فأنا أشتهى أن أموت والقـلم فى يدى ، ولن أنزل أبداً إلى السرداب ، ولو لقيت الحتف بمدافعكم الباغيات

طاخ ! طاخ ! طاخ !

لـكم الويل ، ماذا تريدون منى ، وقد قضيت شبابى فى خدمة الآداب والفنون ؟

طاخ ! طاخ ! طاخ !

تلك إذن خاتمة المطاف لدنيا الشقىّ السعيد ، وهو الرجل الذى شهد الاحتفال بعيد ١٤ يولية فى باريس ست مرات ، ونـعم بالألعاب النارية فى باريس أكثر من عشر مرات فى مواسم مختلفات ، ولعلها تزيد على العشرين ، فلا ضَيْرَ عليه فى أن يموت بالنار الحقيقية فى اسكندرية وفى يده قلم أعنف من قنابل الألمان ، وإن عشت بعـد هذه الليلة الباغية ، فسيرون كيف صدقتُ فى الثناء على نفسى ، فأنا بالرغم منهم فتًى مصرىٌّ لم يعرف الخضوع لغير صاحب العزة والجبروت

طاخ ! طاخ ! طاخ !

الجـيران يصرخون ويولولون ، ونوافذ غرفتى تصرخ وتولول ، وقلبى مع هذه المزعجات أكثر طمأنينة من التمساح الجاثم بأعالى النيل ، فكيف أغمِدُ قلبى فى هذه اللحظة وأنا أشتهى أن أموت وقلبى فى يدى ؟

طاخ ! طاخ ! طاخ !

سأموت بعد لحظة أو لحظتين ، فقد كادت نوافذ غرفتى تتصدع من هول الصيال بين مدافع الإنجليز وقنابل الألمان ، فـما أسعدنى حين أموت والقلم فى يدى ، وإن كنت أرتاب فى إنصاف التاريخ

توت ! توت ! توت !

انتهت الغارة بعد تسعين دقيقة ، فواخجلتاه من العيش ، وليس فى يدى مدفع ولا سيف !

فما دنياى وأنا الشقىُّ السعيد فى الثوانى التى تعد بالـ ١٧٢٨٠٠ ؟

ما دنياى فى تلك الثوانى التى تفوق الأزمان الطوال ؟

دخلت المفوضية العراقية فى ليلة حرب وقد تهيأت أبهاؤها لتكون ميدان رقص ، فقلت : إن اللهو لا يعاب على الأمم القوية والعراقيون أقوياء بالروح ، وإن اتُّهموا كذباً أو صدقاً بنقض العهود .

قال الحجاج : إن أهل العراق أهل شقاق ونفاق

وأقول : إن أهل العراق أهل شقاق ، ولكنهم ليسوا أهل نفاق

فأين من يسمع كلامى قبل أن ينجح من يسرهم إفساد ما بين انجلترا والعراق ؟

وأين من يسعى للصلح بين جيشين كانا بالأمس حليفين ؟ ولن يستفيد من تأريث القتال بين هذين الجيشين غير من يتربصون لأولئك وهؤلاء ؟

وهل ضاعت الفرصة لإصلاح ذات البين ؟

ثم اشتركت فى الحديث مع الرجلين الكريمين عبد الستار الباسل وعلى الشمسى ، وكان الحديث حول ما تستطيع مصر أن تصنع فى هذا الظرف الدقيق (؟!)

وقيل كلام وكلام وأنا ضيِّق الصدر بكل ما أسمع ؛ فقد كان دخان المدافع فى حدود الحبانية يصل إلىَّ ، على بُعد ما بينى وبين الحبانية . وهل يبعد عنى شرٌّ يطير أواره فى أروقة بغداد ؟

الله وحده هو الذى يعلم كيف كان حالى والرقص محتدم بأبهاء المفوضية العراقية ، والرقص من فنون الحرب ، لأنه صراع بين العواطف والأحاسيس

ورجعت إلى دارى فى سيارة رجل كريم من أشراف الحجاز وصدرى يكاد ينشقّ من الألم والغيظ ؛ فقد كنت أحب أن تعفينى الحوادث من صدمة الكرب فى ليلة الاحتفال بميلاد ملك العراق !

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع ؟

سأمضى فى الصباح لمقابلة رئيس الوزراء ، وسأقول له كيت وكيت ، وسيكون لى مقام محمود فى التمهيد لشئون تقوّى المركز الأدبى لمصر فى الشرق

ثم جاء الصباح فتذكرت أنى مسئول أمام وزير المعارف لا أمام وزير الخارجية ؛ وخطة السير فى هذا الأسبوع توجب أن يكون عملى فى المدينة التى تواجه عدوان الحرب من يوم إلى يوم ، فهل أغيّر الخطة وقد عرفت أن عملى سيكون فى مدينة مبتلاة بمخاوف الحرب ؟

وكيف وأنا لا أرحم نفسى فى أداء الواجب ؛ لأنى أؤدى الواجب بلا رقيب ، فقد وثق بى رؤسائى وأسلمونى إلى ضميرى لأقتل نفسى بلا ترفق ولا استبقاء . ولو راقبنى رؤسائى لرحمت نفسى ، وانتفعت بحق فى تعديل خطة السير وفقاً للظروف ، ومَن أسلمك إلى ضميرك فقد أسلمك إلى رقيب لا يعرف الغفلة ولا الهجود !

ثم امتطيت القطار إلى الإسكندرية وصدرى مستكر بالمانى التى ساورتنى فى الليل ، وبعد الوصول بدقائق كنت أحاور الأدباء الإسكندريين ، فهم سلوتى كلما حلت بمغانى ذلك الشاطئ الجميل

— ستطيل عندنا الثواء ، يا دكتور ؟

— خمس ليالٍ طوال !

— إذن فستمتع عينيك وأذنيك بقصف المدافع !

وفى صدر اليوم التالى كنت أؤدى واجباً بمدرسة الطائفة الإسرائيلية ، وهى مدرسة لا تعطّل فى أيام الآحاد ، أو هى المدرسة الإسرائيلية الوحيدة التى لا تعطّل فى الأحد الأول من كل شهر ، وما يرضينى أن أقضى يوماً بلا عمل ؛ وقد آذنتنى وزارة المعارف حين أسلمتنى إلى ضميرى

السنة الأولى الثانوية بهذه المدرسة مكانها فى السطح . وعند الظهر صكت آذاننا المدافع بأصوات أعنف من قصف الرعد فى لحظات الخوف واليأس

ومدير المدرسة يشير بأن ننزل إلى مكان أمين

وأقول : يجب أن نموت ونحن فى الدرس

ثم يصلصل الجرَس مؤذناً بالانصراف فتضعف حجتى فى العناد

وفى المساء يقع ما عرفه القراء فى مطلع هذا الحديث

أما بعد فأين أنا مما كنت أريد ؟